(٣) حنين الذكريات

« طوى الشاعر شطرا من حياته ، مشرداً عن وطنه ، نائياً عن أهله ، مفارقاً أحبابه ، فامتزج فى فنه الحنين بالشجن ؛ والتقى الألم بالأمل ، وتزاحمت فى نفسه الذكريات ، مرددة هذه الأنات » .

آمال وآلام

« فر الشاعر من سجنه بقرطبة إلى إشبيلية ، ولكن قلبه جذبه إلى حبيبته بقرطبة ، فأرسل إليها هذه القصيدة الخالدة التى نالت شهرة عظيمة ، وثارت حولها الأساطير حتى قيل: «ماحفظها أحد إلاّ مات غريبا » ولهج كثيرون بأنّ إنسانا لايتم له الظرف مالم يحفظها ،

وقد شغف بمعارضتها وتخميسها وتسديسها كثيرون ، ولكنها ظلت سامقة فى مكانها الرفيع[1] » .

أضحى التنائى بديلاً مِنْ تَدانينا   وَنَابَ عَنْ طِيبِ لُقْيانا تَجافِينا[2]

(١) وردت القصيدة فى عدة مصادر قديمة ، وفيها اختلاف فى ترتيب بعض الأبيات وفى بعض العبارات ، كما أن هناك خلافا فى مبدئها ، فيقول ابن نباته : « . . . وله القصيدة النونية التى أولها : [بنتم وبنا . . . . البيت] وقد تداولتها الألسن وزيد فيها ما كانت فى غنى عنه » فكأن الأحد عشر بيتاً الأولى ليست من القصيدة ، ولكن الصفدى يقول « . . . ومن ذلك قصيدته النونية التى أولها : [أضحى التنائى بديلا . . البيت] .

ولكل من الرأيين مايزكيه ، ونحن نرجح أن الشاعر صاغ قصيدته ، ثم أعاد النظر فيها كعادته ، فزاد فيها وحرص على جعل أولها مصرعا .

(٢) فى نسخة ا ، ب (وبان) وفى ت ، ز (وآن) وكذلك القلائد ، وقد أخذنا رواية نفح الطيب . والمعنى أن الفراق حلَّ محلَّ الوصال ، وأن الجفوة نابت عن طيب اللقاء .

أَلاَ ـ وَقَدْ حَانَ صُبْحُ الْبَيْنِ ـ صَبَّحَنَا ... حَيْنٌ ، فَقَامَ بِنَا لِلْحَيْنِ نَاعِينَا(١)
مَنْ مُبْلِغُ الْمُلْبِسِينَا بِانْتِزَاحِهِمُ ... حُزْنًا مَعَ الدَّهْرِ لاَ يَبْلَى ، وَيُبْلِينَا :
أَنَّ الزَّمَانَ الَّذِي مَا زَالَ يُضْحِكُنَا ... أُنْسًا بِقُرْبِهِمُ قَدْ عَادَ يُبْكِينَا(٢)
غِيظَ الْعِدَا مِنْ تَسَاقِينَا الْهَوَى ؛ فَدَعَوْا ... بِأَنْ نَغَصَّ ، فَقَالَ الدَّهْرُ : آمِينَا
فَانْحَلَّ مَا كَانَ مَعْقُودًا بِأَنْفُسِنَا ... وَانْبَتَّ مَا كَانَ مَوْصُولاً بِأَيْدِينَا(٣)
وَقَدْ نَكُونُ ، وَمَا يُخْشَى تَفَرُّقُنَا ... فَالْيَوْمَ نَحْنُ، وَمَا يُرْجَى تَلاَقِينَا(٤)

* * *

يَا لَيْتَ شِعْرِي ـ وَلَمْ نُعْتِبْ أَعَادِيَكُمْ ـ ... هَلْ نَالَ حَظًّا مِنَ الْعُتْبَى أَعَادِينَا(٥) ؟
لَمْ نَعْتَقِدْ بَعْدَكُمْ إِلاَّ الْوَفَاءَ لَكُمْ ... رَأْيًا ، وَلَمْ نَتَقَلَّدْ غَيْرَهُ دِينَا
مَا حَقُّنَا أَنْ تُقِرُّوا عَيْنَ ذِي حَسَدٍ ... بِنَا ، وَلاَ أَنْ تَسُرُّوا كَاشِحًا فِينَا(٦)

* * *

كُنَّا نَرَى الْيَأْسَ تُسْلِينَا عَوَارِضُهُ ... وَقَدْ يَئِسْنَا ، فَمَا لِلْيَأْسِ يُغْرِينَا(٧) ؟
بِنْتُمْ وَبِنَّا ، فَمَا ابْتَلَّتْ جَوَانِحُنَا ... شَوْقًا إِلَيْكُمْ ، وَلاَ جَفَّتْ مَآقِينَا(٨)

---

(١) فى النفح (ناعينا) — الا : هلاّ ، الحين : الهلاك ، والمعنى : أنه كان يتمنى أن يلاقى مصرعه قبل أن يحم الفراق !

(٢) رواية المغرب (أن الزمان الذى كنا نُسَرُّ به) ، ورواية القلائد (بقربكمو) .

(٣) انبت : انقطع ، والمعنى تفرق شملنا وانقطعت صلاتنا .

(٤) رواية المغرب (من قبل كنا . . . فالآن . . .) ؛ ورواية النفح (بالأمس كنا . . . واليوم . . .) .

(٥) أعتب : أرضى وسرَّ بعد الإساءة ، والاسم منه العتبى .

(٦) الكاشح : المضمر للعداوة .

(٧) عوارضه : ظواهره أو بوادره ؛ والمعنى : أنه كان ينتظر راحة فى اليأس ، ولكن يأسه زاده شوقا على شوق وحنينا إلى حنين .

(٨) بنتم وبنا : بعدتم وبعدنا .

نَكادُ — حِينَ تُناجِيكُمْ ضَمائِرُنا — يَقْضِي عَلَيْنا الْأَسَى، لَوْلا تَأَسِّينا(١)
حالَتْ لِفَقْدِكُمُ أَيّامُنا ، فَغَدَتْ سُودًا، وَكانَتْ بِكُمْ بِيضًا لَيالِينا(٢)
إِذْ جانِبُ الْعَيْشِ طَلْقٌ مِنْ تَأَلُّفِنا وَمَرْبَعُ اللَّهْوِ صافٍ مِنْ تَصافِينا(٣)
وَإِذْ هَصَرْنا فُنُونَ الْوَصْلِ دانِيَةً قِطافُها ، فَجَنَيْنا مِنْـهُ ما شِينا(٤)

* * *

لِيُسْقَ عَهْدُكُمُ عَهْدُ السُّرُورِ ، فَما كُنْتُمْ لِأَرْواحِنا إِلَّا رَياحِينا(٥)
لا تَحْسَبُوا نَأْيَكُمْ عَنّا يُغَيِّرُنا إِنْ طالَما غَيَّرَ النَّأْيُ الْمُحِبِّينا(٦)
وَاللهِ ما طَلَبَتْ أَهْواؤُنا بَدَلًا مِنْكُمْ، وَلا انْصَرَفَتْ عَنْكُمْ أَمانِينا(٧)

---

(١) المعنى : إذا ناجتكم قلوبنا — على البعاد — عصفت بنا الأحزان وكادت تقضى علينا لولا تملنا بالآمال . وفى جذوة المقتبس وبغية الملتمس (حين تناجينا).

(٢) فى جذوة المقتبس وبغية الملتمس (حارت) .

(٣) رواية الذخيرة والخريدة والمغرب وجذوة المقتبس وبغية الملتمس والمعجب والنفح « ومورد اللهو . . » .

(٤) رواية الذخيرة (غصون الوصل) ، ورواية جذوة المقتبس وبغية الملتمس (فنون اللهو) ، ورواية المعجب والقلائد والخريدة (غصون الأنس) ، وفى الذخيرة والقلائد والنفح والمعجب (دانية قطوفها) ، ما شينا : ما شئنا .

(٥) رواية الذخيرة (كنتم لأبا منا . .) .

(٦) فى إحدى نسخ الذخيرة (إذْ طالما) وفى المغرب (أنْ طالما) .

(٧) آثرنا فى رواية البيت ما أثبتته الذخيرة والقلائد والمغرب والمعجب ونفح الطيب ، أما فى نسخة ا (والله ما أطرفت . . . عنكم) ، وفى نسخ ب ح ت ء ز (والله ما طرفت . . . عنكم) ، وطرف وأطرف بمعنى استحدث .

وَلاَ اسْتَفَدْنَا خَلِيلاً عَنْكِ يَشْغَلُنَا ... وَلاَ اتَّخَذْنَا بَدِيلاً مِنْكِ يُسْلِينَا(١)

* * *

يَاسَارِيَ الْبَرْقِ غَادِ الْقَصْرَ وَاسْقِ بِهِ ... مَنْ كَانَ صِرْفَ الْهَوَى وَالْوُدِّ يَسْقِينَا(٢)

وَاسْأَلْ هُنَالِكَ : هَلْ عَنَّى تَذَكُّرُنَا ... إِلْفًا ، تَذَكُّرُهُ أَمْسَى يُعَنِّينَا ؟(٣)

وَيَانَسِيمَ الصَّبَا بَلِّغْ تَحِيَّتَنَا ... مَنْ لَوْ عَلَى الْبُعْدِ حَيًّا كَانَ يُحْيِينَا(٤)

فَهَلْ أَرَى الدَّهْرَ يَقْضِينَا مُسَاعَفَةً ... فِيهِ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ غِبًّا تَقَاضِينَا ؟(٥)

* * *

رَبِيبُ مُلْكٍ كَأَنَّ اللهَ أَنْشَأَهُ ... مِسْكًا ، وَقَدَّرَ إِنْشَاءَ الْوَرَى طِينَا(٦)

أَوْ صَاغَهُ وَرِقًا مَحْضًا ، وَتَوَّجَهُ ... مِنْ نَاصِعِ التِّبْرِ إِبْدَاعًا وَتَحْسِينَا(٧)

---

(١) لم يرد هذا البيت فى نسخ الديوان، وقد أثبتناه عن القلائد والخريدة .

(٢) فى الذخيرة والقلائد والمغرب والخريدة (فاسق به).

(٣) عَنّى : آلم وأتعب .

(٤) فى نسخ الديوان (على القرب) وقد آثرنا رواية الذخيرة والقلائد والخريدة والمغرب والمعجب ونفح الطيب لأنها أنسب للمعنى ، فقد كان الشاعر بعيداً عن حبيبته يتمنى منها تحية على البعد ، ويأمل أن يظفر منها بخطاب كما فى ختام القصيدة .

(٥) المعنى : طالما تقاضينا الوصال ، فهل يسمح الدهر به بعد طول المطال ؟ وفى النفح (من لا يرى الدهر . . . وإن لم يكن عنا بقاضينا) .

(٦) المعنى : سليل بيت ملك كأن الله خلق الورى من الطين وخلقه وحده من المسك ، ورواية النفح (من بيت ملك . . . وقد أنشأ الله الورى طيناً) .

(٧) الورق: البراهم الفضية ؛ والمعنى : أنه أبيض الوجه ذهبي الشعر ،

إذَا تَأَوَّدَ آدَتْهُ رَفَاهِيَـــةٌ ... تُومُ العُقُودِ ، وَأَدْمَتْهُ البُرَى لِينَا(١)

كَانَتْ لَهُ الشَّمْسُ ظِئْرًا فِي أَكِلَّتِهِ ... بَلْ مَا تَجَلَّى لَهَا إِلَّا أَحَايِينَا(٢)

كَأَنَّمَا أُثْبِتَتْ فِي صَحْنِ وَجْنَتِهِ ... زُهْرُ الكَوَاكِبِ تَعْوِيذًا وَتَزْيِينَا(٣)

مَا ضَرَّ أَنْ لَمْ نَكُنْ أَكْفَاءَهُ شَرَفًا ... وَفِي المَوَدَّةِ كَافٍ مِنْ تَكَافِينَا

* * *

يَا رَوْضَةً طَالَمَا أَجْنَتْ لَوَاحِظَنَا ... وَرْدًا جَلَاهُ الصِّبَا غَضًّا وَنِسْرِينَا(٤)

وَيَا حَيَــاةً تَمَلَّيْنَا بِزَهْرَتِهَا ... مُـنًى ضُرُوبًا وَلَذَّاتٍ أَفَانِينَا(٥)

وَيَا نَعِيمًا خَطَرْنَا مِنْ غَضَارَتِهِ ... فِي وَشْيِ نُعْمَى سَحَبْنَا ذَيْلَهُ حِينَا(٦)

لَسْنَا نُسَمِّيكِ إِجْلَالًا وَتَكْرِمَةً ... وَقَدْرُكِ المُعْتَلِي عَنْ ذَاكِ يُغْنِينَا

---

(١) تأوّد : تمايل ؛ آدته : أثقلته ؛ تؤم العقود : عقود مزدوجة من اللؤلؤ ؛ البُرَى : الخلاخيل ، جمع برة ؛ والمعنى : إذا تمايل لم يطق حمل الحلى الكثيرة لرقته ولينه .

(٢) الظئر : الحاضنة ؛ أكلّة : جمع كلّة ، وهى نسيج رقيق للوقاية من البعوض ، وفى رواية النفح (تكلله) .

(٣) المعنى : كأنما أشرقت النجوم فى محيّاه لتقيه الحسد ، وتردّ عنه العيون .

(٤) النسرين بكسر النون : زهر طيب الرائحة ، وفى المغرب والوافى بالوفيات (جناه الصبا) .

(٥) تملّينا : تمتعنا ، وفى المعجب (تملأنا) ، ضروبا : صنوفا ، والمعنى جنينا من نعيم الحياة شتى المتع واللذات .

(٦) النضارة : السعة والخصب والنعمة ، وفى القلائد والمغرب (سحبنا ذيلها) .

إِذَا انْفَرَدْتِ وَمَا شُورِكْتِ فِى صِفَةٍ ... فَحَسْبُنَا الْوَصْفُ إِيضَاحًا وَتَبْيِينَا(١)

* * *

يَا جَنَّةَ الْخُلْدِ أُبْدِلْنَا بِسِدْرَتِهَا ... وَالْكَوْثَرِ الْعَذْبِ زَقُّومًا وَغِسْلِينَا(٢)

[إِنْ كَانَ قَدْ عَزَّ فِى الدُّنْيَا اللِّقَاءُ فَفِى ... مَوَاقِفِ الْحَشْرِ نَلْقَاكُمْ، وَيَكْفِينَا(٣)]

كَأَنَّنَا لَمْ نَبِتْ، وَالْوَصْلُ ثَالِثُنَا ... وَالسَّعْدُ قَدْ غَضَّ مِنْ أَجْفَانِ وَاشِينَا

سِرَّانِ فِى خَاطِرِ الظَّلْمَاءِ يَكْتُمُنَا ... حَتَّى يَكَادَ لِسَانُ الصُّبْحِ يُفْشِينَا

لَا غَرْوَ فِى أَنْ ذَكَرْنَا الْحُزْنَ حِينَ نَهَتْ ... عَنْهُ النُّهَى، وَتَرَكْنَا الصَّبْرَ نَاسِينَا

إِنَّا قَرَأْنَا الْأَسَى يَوْمَ النَّوَى سُوَرًا ... مَكْتُوبَةً، وَأَخَذْنَا الصَّبْرَ تَلْقِينَا(٤)

---

(١) معنى البيتين : إننا نصون اسمك عن التصريح به إكباراً لك وإجلالا ، فإن انفرادك بالجمال والجلال لايحوجنا إلا إلى أدنى إشارة ، وقد أخذ هذا المعنى البهاء زهير فقال :

أشر لى بوصف واحــد من صفاتهــا ... تكن مثل من سمّى وكنّى ولقّبا

ستكفيك من ذاك المسمّى إشــارةٌ ... ودعه مصونًا بالجمــال محجّبــا

(٢) السدر : شجر النبق ؛ والزقوم شجرة خبيثة ذات ثمر مر ؛ وقد ورد فى التنزيل أنها (شجرة تخرج فى أصل الجحيم ، طلعها كأنه رءوس الشياطين) أما طعامها فهو (طعام الأثيم كالمهل يغلى فى البطون كغلى الحميم) :

وفى الذخيرة والقلائد والخريدة والمغرب والمعجب والنفح والوافى بالوفيات (بسلسلها) وقد آثرنا رواية الديوان لأن السدر يقابل الزقوم .

(٣) لم يرد البيت فى الديوان ، وقد أثبتناه عن القلائد ، وإن كان موضعه فى القلائد بعد البيت : (كأننا لم نبت . . .) وقد أثبتناه هنا لمناسبته للمقام .

(٤) فى الوافى بالوفيات والكوكب الثاقب (واتخذنا) .

أَمَّا هَوَاكِ فَلَمْ نَعْدِلْ بِمَنْهَلِهِ ... شِرْباً، وَإِنْ كَانَ يُرْوِينَا فَيُظْمِينَا[١]

لَمْ نَجْفُ أُفْقَ جَمَالٍ أَنْتِ كَوْكَبُهُ ... سَالِينَ عَنْهُ، وَلَمْ نَهْجُرْهُ قَالِينَا[٢]

وَلَا اخْتِيَاراً تَجَنَّبْنَاهُ عَنْ كَثَبٍ ... لَكِنْ عَدَتْنَا ـ عَلَى كُرْهٍ ـ عَوَادِينَا[٣]

* * *

نَأْسَى عَلَيْكِ إِذَا حُثَّتْ مُشَعْشَعَةً ... فِينَا الشَّمُولُ، وَغَنَّانَا مُغَنِّينَا[٤]

لَا أَكْؤُسُ الرَّاحِ تُبْدِي مِنْ شَمَائِلِنَا ... سِيمَا ارْتِيَاحٍ، وَلَا الْأَوْتَارُ تُلْهِينَا

دُومِي عَلَى الْعَهْدِ ـ مَا دُمْنَا ـ مُحَافِظَةً ... فَالْحُرُّ مَنْ دَانَ إِنْصَافاً، كَمَا دِينَا

فَمَا اسْتَعَضْنَا خَلِيلاً مِنْكِ يَحْبِسُنَا ... وَلَا اسْتَفَدْنَا حَبِيباً عَنْكِ يَثْنِينَا[٥]

وَلَوْ صَبَا نَحْوَنَا مِنْ عُلْوِ مَطْلَعِهِ ... بَدْرُ الدُّجَى لَمْ يَكُنْ حَاشَاكِ يُصْبِينَا[٦]

---

(١) فى النفح (بمشربه) والمعنى : أننا نفضل منهلكم على أىّ منهل آخر ، وإن كان يزيدنا عطشاً كلما ازددنا منه شرباً .

(٢) فى نسخة ب ، ت والقلائد (لم يخف) وهو تحريف ؛ قالين : كارهين .

(٣) كثب : قرب ؛ وفى القلائد والخريدة (تجنبناك) ، والمعنى : أنه اضطر إلى فراقها مرغماً ، على قرب دارها منه .

(٤) مشعشعة : ممزوجة ؛ الشمول : الخمر ؛ وفى الذخيرة والوافى بالوفيات (وقد حثت) وفى الكوكب الثاقب (إذا صُبتْ) .

(٥) فى ب ، ت ، ز (فما استضمنا) وهو تصحيف ، وفى الذخيرة (فما استعدنا خليلا عنك . . يسلينا) ، وفى القلائد :

(فما ابتغينا خليلا منك يحبسنا ... ولا استفدنا حبيباً عنك يغنينا)

وفى الخريدة (. . ولا استفدنا حبيا عنك يغنينا) وفى النفح (فما استعضنا خليلا عنك ...) وفى بعض نسخ النفح (... حبيبا عنك يغنينا) . وفى الوافى بالوفيات

(٦) صبا : مال ؛ يصبينا : يثير صبوتنا ويبعث أشواقنا .

فما استعضنا خليلا عنك يصرفنا ... ولا استفدنا حبيباً عنك يسلينا

ومثل هذا رواية الكوكب الثاقب ماعدا (ولا استفدنا) فقد جعلها ولا اتخذنا .

أَوْلِى وَفَاءً - وَإِنْ لَمْ تَبْذُلِى صِلَةً - ... فَالطَّيْفُ يُقْنِعُنَا، وَالذِّكْرُ يَكْفِينَا[١]

وَفِى الْجَوَابِ مَتَاعٌ إِنْ شَفَعْتِ بِهِ ... بِيضَ الْأَيَادِى الَّتِى مَا زِلْتِ تُولِينَا[٢]

عَلَيْكِ مِنَّا سَلَامُ اللهِ مَا بَقِيَتْ ... صَبَابَةٌ بِكِ نُخْفِيهَا فَتُخْفِينَا[٣]

الأمل المنشود[٤]

يَا نَازِحًا، وَضَمِيرُ الْقَلْبِ مَثْوَاهُ ... أَنْسَتْكَ دُنْيَاكَ عَبْدًا أَنْتَ دُنْيَاهُ[٥]

أَلْهَتْكَ عَنْهُ فُكَاهَاتٌ تَلَذُّ بِهَا ... فَلَيْسَ يَجْرِى بِبَالٍ مِنْكَ ذِكْرَاهُ

عَلَّ اللَّيَالِى تُبَقِّينِى إِلَى أَمَلٍ ... الدَّهْرُ يَعْلَمُ وَالْأَيَّامُ مَعْنَاهُ[٦]

مقصوص الجناح

إِلَيْكِ - مِنَ الْأَنَامِ - غَدَا ارْتِيَاحِى، ... وَأَنْتِ - عَلَى الزَّمَانِ - مَدَى اقْتِرَاحِى[٧]

وَمَا اعْتَرَضَتْ هُمُومُ النَّفْسِ إِلَّا ... - وَمِنْ ذِكْرَاكِ - رَيْحَانِى وَرَاحِى

(١) فى أصول الديوان (أيلى) ، وفى إحدى نسخ الذخيرة والوافى (أبدى) وقد آثرنا رواية القلائد والمغرب . وفى الوافى (فالذكر يقنعنا، والطيف يكفينا)

(٢) فى القلائد والكوكب (قناع) وفيهما وفى النفح والخريدة (لو شفعت) .

(٣) فى الذخيرة والقلائد والخريدة والنفح والكوكب (عليك منى . . .) ، وفى القلائد والكوكب (صبابة منك) .

(٤) لم ترد الأبيات بالديوان . وقد نقلناها عن الذخيرة والقلائد والمغرب .

(٥) فى الذخيرة (أنت مولاه) .

(٦) فى الذخيرة (إلى أجل) ، وفى المغرب (إلى أمد) ، وفيه (الله يعلم) .

(٧) فى النفح (من الزمان) .